الصاعدة والحكم القيصري في آن. فبالنسبة الى الفلاح، لعب اليهودي دور الوسيط للاقطاعي أو لسلطة القمع، ودور المرابي والتاجر والبقال وبائع الخمور. يعني ان اليهودي هو رمز الاستغلال والقمع والاحتيال المباشر. وهذا الدور، بالنسبة الى البرجوازية الصاعدة، يعرقل خطوات رأسملة المجتمع. وهو بالنسبة، الى الحكم القيصري، دور الاداة المكروهة.

ان هذا كله يفسّر لماذا اندلعت المذابح ضد اليهود لمجرد اشتراك فتاة يهودية في عملية اغتيال القيصر، في العام ١٨٨١؛ وكيف ان هذه المذابح اسهم فيها الفلاحون، بالدرجة الاولى، تحت سمع وبصر السلطة، ورضى البرجوازية[٤٦].

ادّت هذه المذابح، على مجرى عملية الاستنارة اليهودية (الهسكالاه) الى انعزال اليهود، ورفض الاندماج، والدعوة الى الهجرة من خلال تحويل «الهسكالاه» الى جمعية «احباء صهيون»[٤٧]. وبالفعل، أخذت افواج اليهود الشرقيين تتدفق على بلدان اوروبا الغربية، نافخة حياة جديدة في الجسم اليهودي المهترىء. فلقد كانت الاحداث التي عصفت باليهود في شرق اوروبا مؤثرة في عدم اضمحلال اليهودية في غربها؛ ذلك ما أكده كلاتزكن حين كتب: «تشكّل جماهيرنا الشعبية الكبيرة في الشرق، التي لا تزال تعيش في جو التقاليد اليهودية، عائقاً أمام اضمحلال اليهودية الغربية... ان اليهودية الغربية ليست سوى انعكاس لليهودية الشرقية»[٤٨].

غير ان اوروبا الغربية، التي ساد فيها النظام الرأسمالي الامبريالي التوسّعي، لم تتمكّن من استيعاب افواج اليهود الشرقيين المهاجرين اليها. فمع «صعود الرأسمالية المستمر، واشتداد التنافس الاقتصادي في ظلها، ظهرت بوادر العداء للسامية، التي تحوّلت، فيما بعد، الى حركة سياسية شاملة ذات ايديولوجية عرقية شبه متكاملة، واحزاب سياسية تدين لها. وانتشرت افكار وممارسات العداء للسامية في طبقة النبلاء السائرة على طريق الانحلال والافكار، وفي طبقة البرجوازية الصغيرة، التي كانت أكثر الطبقات الاجتماعية تأثراً وانفعالاً، بالنسبة الى مصالحها، جرّاء التنافس الاقتصادي الضاري مع البرجوازية اليهودية الصغيرة والوسطى...»[٤٩]. أمّا البرجوازية اليهودية الكبيرة، فقد كانت مندمجة في محيطها، ومتحالفة مع الرأسمالية الكبيرة غير اليهودية. ولقد خافت على مصالحها من انتشار العداء للسامية، فرأت، حفاظاً على هذه المصالح، التخلّص من اليهودي الفقير، مصدر العداء للسامية، باخراجه من المجتمع الاوروبي. لذلك عطفت على الحركة الصهيونية ودعمتها. ولولا العداء للسامية لما اهتم اليهودي الثري ببؤس اليهودي الفقير[٥٠].

هكذا التقت مصالح البرجوازية اليهودية الكبيرة مع التيارات اللاسامية الاوروبية الرأسمالية في العمل المشترك للتخلص من اليهود الوافدين الى اوروبا الغربية، خشية على مصالحها الاقتصادية، ولمحاربة «الاتجاهات التقدمية للبروليتاريين اليهود، من جهة، ولتحقيق اغراض الامبريالية في المنطقة، من جهة أخرى. والاّ، فكيف نستطيع تفسير ذلك التلاقي الحميم بين اللاسامية الحديثة (أي معاداة اليهود)، منذ نهاية القرن الماضي، وبين دولة اسرائيل والامبريالية في الوقت الحاضر؟». وقد لاحظ المؤرخ البريطاني، ارنولد توينبي، «ان الصهيونية واللاسامية تعبّران عن تطابق في وجهات النظر»[٥١].

قدّمت اللاسامية خدمة جلّى الى الحركة الصهيونية، والى الامبريالية التي هي أعلى مراحل الرأسمالية في اوروبا، فكانت الدعامة الاساسية للصهيونية. ولقد رأى هرتسل ضرورة اندماج الصهيونية في حركة المجتمع الاوروبي والرأسمالي القومي باتجاه الاستعمار والاستغلال